الخطبة الرابعة

القوة أحدٌ أحد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً ملء السموات والأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت يا رب العالمين، اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد كله، والشكر كله، والثناء الجميل يا إله العالمين. أما بعد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير» أخرجه مسلم.

الخير هو ما جعله الله تعالى ورسوله ﷺ خيراً، والقبح ما قبحه الله ورسوله، لذلك من منا لا يحب أن يكون قوياً بعد هذه التزكية من رسول الله ﷺ؟ لا أحد.

القوة وحبها فطرة مفطور عليها الإنسان لأنها غريزة ولأنها حب البقاء، كلنا يريد القوة، لأن القوة مصدر ثقة بالنفس، القوة كرامة واحترام، القوة تجعلك مؤثراً في الناس، القوة تجعلك ذا سلطة، وتجعلك قادراً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، القوة عزة ومصدر إعجاب من الناس، القوة تجلب محبة الناس وتعظيمهم وتعاطفهم.

ولكن السؤال المهم الآن: ما هي مصادر القوة؟ وكيف أحصل عليها؟ العلم قوة، الخبرة قوة، الحياء قوة، الاستقامة قوة، الأمانة قوة، العفة والاستغناء عن الناس قوة، أن تكون مع الله تعالى قوة.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد: 57/ 4]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2/ 194].

- الإخلاص لله تعالى في النيات والأقوال والأعمال قوة، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: 12/ 24].

- الذكر قوة، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات: 37/ 143-144].

- التقوى قوة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 2/ 282].

- التوكل على الله قوة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 65/ 3].

- الاستغفار قوة، قال عليه الصلاة والسلام: «من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب» الحاكم.

- ثقتك بالله، إيمانك بالله قوة ما بعدها قوة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: 3/ 139].

«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»، نعم المؤمن القوي خير وأحب إلى الله، وكلنا يحب القوة، وكلنا يعرف مصادر القوة، فالقضية بأيدينا. تَعَلّم تصبح قوياً محترماً معززاً مكرماً بعلمك، والعالِم محترم وذو قوة ومكانة، القوة ليست مقصورة على القوي جسدياً، القوة في الفكر والعقيدة وفي اللسان، وفي المواقف.

القوة قد تصاحب الضعف ولكن القوة تغلب، وإليك الدليل: قريش بقوتها وصناديدها، وحر شمسها، وصخورها الحامية الثقيلة على صدر بلال وتحته الرمال المتوهجة والضرب والتعذيب، كل هذه القوى هل غلبت الضعيف الفقير العبد الذي لا حول له ولا قوة؟ أبداً ما غلبته وظل يصدحُ: بأحدٍ أحد يعلن عن إيمانه، يعلن عن ثقته بربه، يعلن عن اعتماده على الله تعالى، يعلن عن توكله على الله تعالى.

أحدٌ أحد كانت قوة مزلزلة لقريش، أحدٌ أحد دكت ثقتهم بأنفسهم، أحدٌ أحد زعزعت إيمانهم بأصنامهم وتفاهاتهم، أحدٌ أحد أصبحت مثالاً لقوة الإيمان إلى قيام الساعة. أحدٌ أحد أصبحت مثالاً للثقة بالله والاعتماد عليه إلى قيام الساعة، أحدٌ أحد قَوَّت الضعفاء من المسلمين فثبتتهم ولم ينهاروا، أحدٌ أحد وحدت المسلمين وكسرت شوكة المشركين.

أحدٌ أحد جعلت الصامتين يصدحون بالحق، أحدٌ أحد غيرت المفاهيم، مفاهيم القوة والعزة والكرامة، ليست القوة للظالم والمتسلط، إنما القوة قوة العقيدة والإيمان، أحدٌ أحد بينت عظمة الآخرة، وبيّنت عظمة جنة عرضها السموات والأرض، أحدٌ أحد فضحت الدنيا فبان هوانها وحقارتها، أحدٌ أحد أصبحت مناراً ومشعلاً لبني الإسلام وللبشرية حتى قيام الساعة.

أحدٌ أحد هي الفوز الأبدي، والقوة التي لا تقهر، وقد نال صاحبها في الدنيا شرفًا ما بعده شرف، فكان أول من علا سطح الكعبة وهو العبد الفقير الضعيف، الذي لا مال له ولا قوة ولا عشيرة ولا سلطة ولا شيء، إلا الإيمان والثقة بالله والإخلاص لله تعالى، وصدح من فوق ظهر الكعبة بأذان الإسلام.

ونال صاحبها عزاً ما عرفته الملوك ولا القياصرة، ويا ليتنا كنا هناك في دمشق عندما طلب منه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يؤذن، فأذن فبكت دمشق بأهلها، كما بكت المدينة من قبل بأذانه عندما طلب منه الحسن والحسين أن يؤذن بكت المدينة بأهلها حتى كادوا أن يُشغلوا عن الصلاة، أليست هذه قوة وشرف وعزة ورفعة ومكانة ومنزلة؟ ألا يتمنى كل منا أن يكون بلالاً؟ بلى وربي، سلام الله ورحمته عليه.

وفي شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة جاء قوم من عضل وقارة وسألوا رسول الله ﷺ أن يبعث معهم من يعلمهم الدين ويقرؤهم القرآن، فبعث معهم عشرة -كما في رواية البخاري-، وقيل: ستة نفر -في رواية ابن إسحاق-، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت رضي الله عنه، فلما كانوا بمنطقة الرجيع غدروا بهم، وساعدهم في ذلك بنو لحيان،

وأحاط بالمسلمين مئة رامٍ فقتلوهم وأسروا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة رضي الله عنهم، ولما قتلوا عاصم بعثت قريش بمن يأتي بجسده أو بشيء من جسده، فبعث الله تعالى عليه الزنابير تحوم حول جسده وتحميه من أن يقربه أحد فما استطاعوا أخذه ولا القرب منه، ولما بلغ عمر رضي الله عنه الخبر قال: «يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته» البخاري.

بالله عليك أليست هذه قوة؟! حتى بعد مماتك لا تستطيع سرية أن تُمْسك بك أو تقربك، قوة الرب سبحانه الذي قاتلتَ من أجلهِ تحميك، نَصْرَهُ الذي وعد به المؤمنين يحميك.

ولما أُخذ خبيب بن عدي رضي الله عنه إلى قريش، واشتراه عقبة بن الحارث ليقتله لأن خبيباً قتل أباه الحارث يوم بدر، فلما صلبوه قال له أبو سفيان: أيسرك أن محمداً عندنا نضرب عنقه، وأنك في أهلك، فقال خبيب: «لا والله ما يسرني أني في أهلي، وأن محمداً ﷺ في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً».

قوة الحب، قوة الإيمان، قوة الإخلاص، أترى خبيباً كان ضعيفاً أو مهزوماً؟ أبداً، إن خبيباً كان قوياً ثابتاً لم يهزه الموت ولم يخيفه، كان منصوراً وكان محل الإعجاب، وأجرى الله له سراً شهد له به الكفار، وسطره التاريخ تعبيراً عن قوة الإيمان، وعن حلاوة الثقة بالله والاعتماد والتوكل عليه، لما كان في الأسر في بيت ماويّة مولاة مُجَير بن أبي إهاب، وهي التي حدّثت بالقصة وكانت مشركة ثم أسلمت، قالت ماويّة: اطّلعت على خبيب يوماً من صير الباب، فوجدته يأكل قِطفاً من عنب في يده مثل رأس الرجل، وإنه لمُوثَق بالحديد، وما يوجد بمكة من ثمرة! بربك قل لي: من الذي بالأسر خبيب أم المشركين؟

كن مع الله ترى الله معك ... واترك الكل وحاذر طمعك

وخبيب بن عدي رضي الله عنه هذا وهو على خشبة الصلب يقول: اللهم بلغ رسولك مني السلام، فأرسل الله تعالى جبريلاً عليه السلام إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ليبلغه سلام خبيب، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليك السلام، فقال الصحابة: يا نبي الله على من؟ قال: أخوكم خبيب بن عدي يقتل، الله يسمع كلامه، وجبريل يبلغ سلامه ورسوله ﷺ يرد عليه، والملائكة تأتي له بالعنب ليأكل، أيوجد قوة فوق هذه القوة؟! إنها قوة المعية مع الله، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: 47/ 35].

الثقة بالله والتوكل على الله والالتجاء إلى الله تعالى قوة عظيمة تُذْهِبُ الهم وتقضي الدين، أليس في هذا عجباً؟! إليك الدليل:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة رضي الله عنه واسمه صُديّ بن عَجْلان ، فقال: «يا أبا أمامة، ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله، قال: أفلا أعلمك كلاماً إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من الكفر والفقر، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال، قال: ففعلت ذلك فأذهب الله عز وجل همي، وقضي عني ديني». أخرجه أبو داود بإسناد حسن.

قال ﷺ: «ما أصاب مسلماً قطُّ همٌّ، أو حزَنٌ، فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله تعالى همه وأبدل مكان حزنه فرحاً، قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلم

هذه الكلمات؟ قال: بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن» حم - ش - طب - ك عن ابن مسعود.

بلغت الدولة الأموية أقصى اتساع لها في عهد الخليفة العاشر هشام بن عبد الملك (105 - 125) هـ - (724 - 743) م. الدولة الأموية:

1 - معاوية بن أبي سفيان (41 - 60) هـ - (661 - 680) م.

2 - يزيد بن معاوية (60 - 64) هـ.

3 - معاوية بن يزيد (64 - 64) هـ.

4 - مروان بن الحكم (64 - 65) هـ.

5 - عبد الملك بن مروان (65 - 68) هـ.

6 - الوليد بن عبد الملك (86 - 96) هـ.

7 - سليمان بن عبد الملك (96 - 99) هـ.

8 - عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم (99 - 101) هـ.

9 - يزيد بن عبد الملك (101 - 105) هـ.

10 - هشام بن عبد الملك (105 - 125) هـ.

11 - الوليد بن يزيد بن عبد الملك (125 - 126) هـ.

12 - يزيد بن الوليد بن عبد الملك (126 - 127) هـ.

13 - إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك (126 - 127) هـ.

14 - مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (127 - 132) هـ - (744 - 750) م - هُزم في معركة الزاب وقتل في مصر، وقامت بعده الدولة العباسية.

واسمع معي إلى هذه القصة وتمعَّن في قوة البصيرة، وقوة الفهم لهذه الدنيا:

جاء هشام بن عبد الملك فحجَّ البيت الحرام، فلما كان في الطواف رأى سالمَ بنَ عبد الله بنِ عمر الزاهد العالم العارف، وهو يطوف، وحذاؤه في يده، وعليه عمامة،

وثياب لا تساوي عشرة دراهم، فقال له هشام: (يا سالم، أتريد حاجة أقضيها لك اليوم؟) قال سالم: أما تستحي من الله، تعرضُ عليَّ الحوائج، وأنا في بيته، فاحمرَّ وجه الخليفة، فلما خرج من الحرم لقيه، قال الخليفة هشام: هل تريد شيئاً؟ قال: من حوائج الدنيا، أم من حوائج الآخرة؟ قال: أما حوائج الآخرة فلا أملكها، لكن أملك حوائج الدنيا، قال سالم رضي الله عنه: والله الذي لا إله إلا هو، ما طلبت حوائج الدنيا، من الذي يملكها تبارك وتعالى، فكيف أطلبها منك؟!).

ألم يكن هذا العالم قوياً أمام الخليفة؟ الاستقامة قوة، النزاهة قوة، الأمانة قوة، العفة قوة، العلم قوة.

وحصل أن اختلف سليمان (الخليفة السابع في الدولة الأموية) (96 - 99 هـ / 715 - 717 م) وأبناؤه في مسألة من مسائل الحج، فقال: دلوني على عطاء بن أبي رباح، فأخذوه إلى عطاء وهو في الحرم، والناس عليه كالغمام، فأراد سليمان أن يجتاز الصفوف، ويتقدم إليه وهو الخليفة، فقال عطاء : يا أمير المؤمنين خذ مكانك، ولا تتقدم الناس؛ فإن الناس سبقوك إلى هذا المكان، فلما أتى دوره سأله المسألة فأجابه، فقال سليمان لأبنائه: يا أبنائي، عليكم بتقوى الله، والتفقه في الدين، فو الله ما ذللت في حياتي إلا لهذا العبد، لأن الله يرفع من يشاء بطاعته، وإن كان عبدًا حبشيًّا لا مال له، ولا نسب، ويذل من يشاء بمعصيته، وإن كان ذا نسب وشرف.

ألم يكن هذا العبد الحبشي الذي رأسه كالزبيبة قوياً؟

كن مع الله ترى الله معك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس، لو أقسم على الله لأبره» الحاكم - حلية الأولياء، وفي رواية مسلم: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره».

يا أخي في الله أُذَكِّرُكَ ونفسي الخاطئة بأن القوة ليست بالسلطة ولا بالتعسف ولا بالتكبر والتعالي على الناس، والقوة ليست بالمال والعقارات، القوة منشؤها الله تعالى فهو سبحانه القوي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 51/ 58].

والقوة ليست أمراً تجنيه أنت، وإنما القوة منحة وموهبة من الله، جعل الله سبحانه لها أسبابًا، قد يأتي أحدنا بأسباب القوة لكن ليس عنده قوة؛ لأن مشيئة الله تعالى أرادت ذلك، ولكن الأصل أن يقوم الإنسان بالأسباب ويأخذ بها ثم يتوكل على الله تعالى ويدعوه أن يرزقه ويمنحه القوة.

فالقوة الحقيقية نعمة من الله تعالى وهبة منه، ثم إن هناك قضية مهمة وهي: أنه مهما بلغ الإنسان من قوة وعلم وفهم ورزق وكل ما هو خير وكل ما هو مستحسن؛ يجب عليه أن يُرْجِعَ الفضل إلى الله تعالى -وأن يعترف بفقره- مهما بلغ ومهما علا شأنه في أي أمر وفي أية نعمة، يطلب من الله تعالى المزيد، ويعترف بفقره وتقصيره، ويعلن عن حاجته إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 28/ 24]، أنا دائماً فقير إليه تعالى وأنا دائماً أطلب المزيد، وأطلب من الله تعالى دوام النعمة، ودوام القوة والمنعة، لأن الذي أعطاك إياها سبحانه قادر على أن يأخذها منك بلمح البصر، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 10/ 24].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفُجاءة نقمتك وجميع سخطك» مسلم - د - ن.

وقال ﷺ: «اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمت منه، وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه عبدك ونبيك، اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيراً» هـ عن عائشة رضي الله عنها.

وقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر وفتنة الدجال، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها» حم - م - ن عن زيد.

وقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم، والمغرم والمأثم، ومن فتنة القبر وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شر فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، اللهم اغسل عني خطاياي بالماء والثلج والبرد، ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب» ق - ت - ن - هـ عن عائشة رضي الله عنها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم